الحالمون والكادحون

بقلم : رجاء الدريني

يوم التقيت به كنت أصيف مع أهلى فى بلدة الزبدانى • أقمنا ذلك الصيف فى بيت جاثم على سفح الجبل المطل على سهل الزبدانى الأخضر الجميل • كان لقائى بفؤاد صدفة لم تدبرها ارادات بشرية ، ولا أدرى ان كان يومها ارادة خارقة تدبر لقائى به •

وكان اللقاء عابرا • حين رأيته • تم ذلك فجأة وانتهى بسرعة • رأيته شابا فارع الطول قذر الثياب رث المظهر • بدا لى يومها كأنه أحد عمال تعبيد الطرق لكن قذارة ثيابه ورثاثة مظهره كانت غير منسجمة مع الكتاب السميك الذى كان بيده ، أو مع الذكاء الذى شعته عيناه الحادتان ، أو مع الاعتداد والسيطرة التى بدت فى مظهره. كذلك لفت نظرى يومها غرته الأنيقة المنسدلة بدون تكلف على جبينه العريض •

كان الوقت صباحا ، حوالى التاسعة• وكنت أتمشى على الطريق المؤدى الى بلودان ، مع صديقتى لمياء ، ومع أمى وأخى الصغير مروان • أمى سارت أمامنا، وأمسكت بيدها معصم أخى مروان الذى كان يتملص منها فيفلت كالزئبق ، مرة تلو الأخرى فتلحق به وهى تنهر وتزمجر حتى تمسكه • كانت خائفة عليه من السيارات التى مرت بنا فى سرعة مجنونة •

كنت يومها أصغى لأحاديث لمياء عن معاكسات الشباب لها وعن مغامراتها معهم • وسحرنى ما أسمع • طبعا كانت تبالغ وتهول وتبهر حديثها بألوان ووقائع من صنع الخيال • فلو أحصيت الشباب الذين ورد ذكرهم على لسانها لتعدى عددهم العشرين ، وكلهم حسب وصفها من أجمل الشباب وأغناهم وأكرمهم حسبا ونسبا ومستقبلا • هذا فى حين أن لمياء لم تكن جميلة ولا أنيقة، فهى قصيرة ، وشعرها كث ، وعيناها صغيرتان منحرفتان كعيون الصينيات ، وأنفها عريض مفلطح ، وفمها كبير : وأمى وأبى كانا يشجعانى على مرافقتها لأننى الى جانبها ازداد جمالا عن جمالى الحقيقى حتى لأبدو قمرا برفقة نجمة • وكانت لمياء مراهقة لم تتخط السابعة عشرة بعد ، فى حين كنت فى التاسعة عشرة • رغم أنها أصغر منى فقد تعرفت على هذا العدد الضخم من الشباب ، منهم من أخذها فى سيارته الفخمة فى « مشاوير » طويلة جميلة ، ومنهم من دخلت معه السينما مرة وأخلفت معه

الموعد مرات ، ومنهم من انتظرها ساعات طوال فى زاوية أحد الشوارع ، ومنهم من اشترى لها حلية أو هدية ما ، ومنهم من أرسل لها يشكو غرامه ويبكى عذابه، ومنهم من هـــدد أن ينتحر اذا لم تحن عليه بنظرة رضا أو ابتسامة تشجيع أو قبلة حانية ·

طبعا كانت نبالغ وتهول · فانا أجمل منها ، وأكبرها بعامين ، ومع هذا لم يدخل حياتى العاطفية ســوى شـــاب واحد مسكين أعرج فقير · لا أدرى كيف تعرف على ، ولكنى لاحظته ذات يوم يقف عند مدخـل الزقاق المؤدى الى بيتنـــا وينتظرنى هناك كل صباح حين أذهب الى المدرسة ، ثم يتبعنى حين أصل اليهـا ، وينتظرنى كل مساء عند باب المدرسة ويتبعنى حتى أصل الى بيتنا . كان يفعل هذا كل يوم، ستة أيام فى الأسبوع ولكنه لم يفه قط بكلمة ، لكن عينيـه كانتا تنطقان بحب موله حارق ، ووجهه كان يعبر عن نشوة عذبة وعذاب دفين· وبعد حوالى ثلاثة أشهر قررت أن أجعله يتكلم ويلقى فى مسامعى المتشـــوقة الكلام الذى كنت أشـــتهيه · لم أكن آبه لشخصه على الاطلاق ، ولكنى كنت مســـتعدة أن أغمض عينى وأســـمح لصوته أن ينساب الى أذنى فقلبى يحمل اليها قصة حب ، أو حديث غرام ·

وحين قررت أن أفك عقدة لسانه، بقيت أياما وليالى أرسم الخطة · كانت خطة ساذجة · لدى عودتى من المدرسة الى البيت سأترك طريقى المألوف وأتخذ طريقا آخر أطول بين الأزقة الضـــيقة المتعرجة ، ثم اذا تبعنى أدخل عطفـة مسدودة أعرفها ، وأقف تحت سدة باب منعـزل نوعـا بحيث لو لحقنى هنـاك وكلمته أو كلمنى لا يســمعنا أحـد . وكان هذا الباب يؤدى الى بيت خالتى.

وأخيرا نفذت الخطة وسار كل شىء كما رسمته حتى وصلت ســـدة الباب المنعزل ووقفت تحتها · وحينذاك وقف عاشقى المسكين محتارا مذهولا · كان قد أدرك أن العطفة مسدودة ، وانه لا بد ان يرجع قبل أن يخرج احد الناس من بيته ويسأله عما يريد · كان عليه أن يقرر فى سرعة ، فاما أن يتقدم نحوى ويكلمنى واما أن يعـــود · وخفت أن يجبن فى آخر لحظة ، فقـررت أن أقطع عليه خط الرجعة ، وأشرت اليه أن يأتى نحوى · فاحمر وجهـه وجحظت عيناه وكاد يفقد توازنه ولكنه تقدم نحـــوى مترنحا كالثمل .

وهمست له متصنعة الغضب ·

« منذ مدة وانت تتبعنى · ماذا تريد منى ؟ » ·

وثائـا ، وفافـــأ ، واحتقن الدم فى وجهه ، ورأيت الدمع يجول فى عينيه ·

فاشفقت عليه أكثر مما غضبت منه، وصرفته بقولى :

« لا تتبعنى بعد اليوم ، والا فضحتك»

وأدرت له ظهـــرى ، ودققت جرس الباب · فوقف لحظة ، ثم انصرف دون أن ينبس ببنت شفة · ولم أره منـــذ ذلك اليوم ·

وهكذا خيب الجبان آمالى · ولا أنكر

انني افتقـــدته كثيرا حين اختفى من حياتى ، وافتقدت الكثير من بهجة الحياة التى كنت استمتعت بها حين كان يتبعنى كذلك كان شعورى بوجوده خلفى كل يوم ، وبأن عينيه يتفحصان بقوامى وجمالى ومشيتى وحركاتى فى اعجاب ، هذا الشعور كان قد أصبح بالنسبة لى عادة استمرأتها . وحين اختفى خلت حياتى من هذه العادة التى حننت اليها أكثر من مرة . كذلك كان وجوده الصـــامت فى حياتى نوعا من المغامرة المريحة ، وباختفائه زالت من حياتى مغامرات الغرام التى كنت جد مشتاق اليها .

ولهذا كنت أطرب لأحاديث لمياء . ربما كانت تبالغ وتهول وتمزج الواقع بالخيال . ماذا يهم ؟ لديهم ان كانت قصصها واقعا أم خيالا ما دامت تملأ بعض الفراغ فى حياة قلبى . ولهذا كنت دائما أستمع لها فى شوق وسعادة

ويوم التقيت بفؤاد كان لطف الجو وسحر المناظر حولى من جبال شامخة وبساتين مخضرة وأزهار عطرة وأشجار مثقلة بالثمار الحمراء والصفراء والسوداء ـ كل هذا كان يهيئنى نفسيا الى أن أفتح قلبى للحب ، ولأحاديث الهوى وقصص الغرام . ولهذا كانت قصص لمياء يومها جميلة ساحرة مؤثرة.

وفجأة أفلت أخى مروان من أمى ، وراح يعدو فى عرض الطريق وكأنه يتحدى أمى ويتمرد عليها . وصاحت أمى فى هستيرية مذعورة ، ولحقت به ثم عثرت بحجر ووقعت . وكان هذا سر مروان فراح يمعن فى العدو وكأنه سجين أفلت من سجنه ، وهتفت بى أمى :

« امسكيه حالا . امسكيه والا داسته السيارات » .

وبهمة متثاقلة سللت نفسى من الأجواء العاطفية العذبة التى غمرتنى بها لمياء ، وبدأت أطارد مروان . وما كدت أعدو عشرين مترا حتى انشقت الأرض عن فؤاد . وفى طرفة عين كان مروان بين ذراعيه انتويتين « يتلعبط » كالسمكة فى شبكة . وسار فؤاد بحمله المزعج نحوى وفى نظراته بريق غريب وفى وجهه ابتسامة تركزت حول شفتيه المكتنزتين وفمه المستدير . وحالما وصلنى وضع مروان على قدميه وناولنى ذراعه الصغيرة وقال لى مداعبا :

« هذا الجرو يحتاج الى طوق ، والا فان الأرض لا تنشق دائما عن عفريت مثلى ليمسكه » .

وفى الحال استدار على عقبيه وسار بضع خطوات ، ثم انحنى ليلتقط كتابا ضخما كان قد سقط منه على الأرض، ثم عاود سيره واختفى بين الصخور والدغل المتناثر هنا وهناك على سفح الجبل .

حدث كل هذا وأنا واقفة متسمرة مشدوهة . وحين انتهى كل شىء باختفاء فؤاد عن نظرى ثبت الى رشدى ووجدت يدى قابضة على ذراع أخى مروان فى نفس الموضع الذى وضعتها عليه يد الرجل العفريت فؤاد . كانت أصابعى تضغط لا شعوريا ذراع مروان فى عنف مما جعله يصيح فى ألم مذعور ، فاستيقظت على صياحه وعلى ضحكات

لميـــاء التى كانت الآن تقف بجـانبى وتهمس فى أذنى :

« ما أجمله ! فى حياتى لم أر أجمل منه ! » .

واحمر وجهى خجلا . طبعا لم أره يحمر ولكنى شعرت بالدم يصـــعد الى وجهى . ولكى أستر موقفى ومشاعرى عن لمياء صحت بأخى مروان وأنا أجره نحـــو أمى التى كانت قد نهضت من عثرتها وراحت تصلح حالهـــا وتنفض الغبـــار عن ملابسها الانيقة الغالية ، وناولتها ذراعه وأنا أنهره :

« امســـك يد أمك يا كلب . يعنى لازم تفضحنا وتنكد عيشـــنا ؟ » وزاد صياحه مما جعل أمى تنهرنى معنفة :

« اتركيه يا مجنونة ! قلت اتركيه . تعال يا حبيبى تعال . »

واغضبنى تدليلها له بدل التعنيف ، فدفعته نحوها فى عنف مما جعله يزداد صياحا وجعل أمى تنهال على بلعنة .

وهكذا تم وانتهى اللقاء الأول بينى وبين الرجل الذى ملأ حيـاتى طيـلة عام ونيف بعد ذلك اليوم . وبعد أيام من هـــذا اللقاء قررت أمى أننا نلنـا كفايتنا من الاستجمام الذى أحاله مروان بمشاكله الصبيانية الى جحيم ، وعادت عليه فى عنف ، وخاصمته فى قسوة ، بنا الى بيتنا فى دمشق .

كانت صورة فؤاد العفريت هى كل ما عدت به من التصييف فى الزبدانى: صورة غامضة غير واضحة المعالم لشاب فارع القـــامة قذر الثياب رث المظهر وكانه أحد عمال تعبيد الطرق . ولكن بيده كتاب ضخم وله عينان نفاذتان ، وفم ممتلىء مدور باسم ، وغرة جميلة منسدلة بدون تكلف على جبينه العريض، وفى مظهره اعتداد وقدرة على السيطرة. الصورة كانت شريطا متحركا لهـــذا الشاب تنشق عنه الأرض فيخرج منها ماردا ينقض على مروان فيمسكه ويحمله الى بين ذراعيه ، ثم يناولنى ذراعه وفى عينيه نظرات غريبة وحول شـــفتيه ابتسامة ســـاحرة ، ويقول لى بعض كلمات ، ثم يستدير على عقبيه ويسير نحو كتاب سقط منه ، فيلتقطه ويستأنف السير ثم يختفى بين الصخور والزعل . ثم يأتينى صوت لمياء الخبيرة بالشـباب يهمس لى فى مكر : « ما أجمله ! » ويظل الصـــوت يتحول الى أصداء تعوق فى أعماق روحى الجائعة الى الحب والى الرجال : « ما أجمله ... ما أجمله.. ما أجمله ! »

وفى دمشق رحت أقضى ســـاعات وحدتى وكثيرا من ليالى مع هذه المجموعة من الصور . وراح خيالى يضفى عليهـا ألوانا من الجمال غريبة ساحرة جذابة لا تقاوم . ورحت أعيش مع هذه الصور أحداثا جميلة ـ فلقد صنعت منهـــا عريس الأحـــلام ، رفيق الحيـاة ، وأبا أولادى . وأحببتـــه فى عنف ، وغرت عليه فى عنق ، وخاصمته فى قسوة ، وصالحته فى حنان ، ورجعت اليه تائبة، وبكيت بين يديه نادمة . ألف صـورة وصورة نسجتها حولنـــا ، أنا وعريس أحلامى الذى عدت بصورته من الزبدانى. ومن أجـــله رفضت ثلاثة رجال طلبوا يدى ـ لأن نظراتهم لم تكن نفاذة ، ولأن

عيونهم خالية من البريق الساحر ، ولان جباههم لم تتوجها غرة أنيقة منسدلة ، ولان طولهم لم يكن فارعا ، ولانهم لم يخرجوا فجاة كالعفاريت من بطن الأرض ولان أوقات مجيئهم لم تمهد لهـا لمياء بقصـص الحب ومغامرات العشـق والغرام ·

وانقضى الصيف وتلاه عام دراسى ثم صيف ثان ، والصورة التى عدت بهـا من الزبدانى ما تزال حية فى خيـالى نشيطة فى فؤادى · ولكن حيويتهـا ونشاطها كانا قد فقدا الكثير من عنفهما، وتركانى أكثر اسـتعدادا للتهاون مع الواقع ولقبول عريس أحلام آخر · ومن يدرى ، فربما لا أعرف الشـاب الذى رأيته صرخة فى الزبدانى لمدة قصيرة ، بعد هذه المدة الطويلة ·

وكنت فى هـذا الوقت على وشـك أن أبدأ آخر عام دراسى لى فى الدراسـة الثانوية ·

كان أول يومين فى المدرسـة عاديين جدا · وجوه المدرسين مألوفة ، وكذلك وجوه زميلاتنـا التلميذات ، وبينهـن لمياء ، وكذلك جـو المدرسـة كله ، بفصولها ومقاعدها وجدرانها وحجابهـا كان كلهمألوفا · وروتين الحياة المدرسية كان كمهـدنا به ـ جرس ، طابور ، دخول الفصل ، شىء من الضـجيج ، أستاذ يدخل ، هدوء ، كتب تفتح وأيد تمتد الى الأقلام ثم تسجل على الدفاتر ملاحظة هنا وجملة هناك ··· ثم جرس، ويخرج الاستاذ ، ويبـدأ الضـجيج من جديد ·

الساعة الرابعـة من اليوم الدراسى الثالث كانت سـاعة التـاريخ ، قرع الجرس ، وهدأت التلميذات ، وملأ الجو شعور ترقب وانتظـار لمجىء المدرس الجديد · فقد علمنا يومهـا أن ادارة المدرسة تعاقدت مع أستاذ للتاريخ شاب وجديد على المدرسة ·

وفجأة وقف عند الباب شاب وسيم جدا ، فارع الطول ، ذو عينين نفـاذتين وفم مستدير ووجه باش مبتسم ، وغرة أنيقة منسدلة على جبينه العريض · ثم تقدم الى طاولة المدرس بخطوات سريعة ومشية معتدة وأخرج من حقيبته كتابا وبعض الدفاتر وقدم نفسه باسم «فؤاد الغول» وضجت التلميذات بالضحك ، وشاركهن فى ضحكهن بعد أن أكد لهن أنه فى الحقيقة « غول » وديع لا يؤذى أحدا ، ولا سـيما البنات · ثم بدأ يشرح الدرس · لم أفهم يومها شيئا · كنت أعانى من شعور ملح بأننى أعرف هذا « الغول » ، ولكننى لم أستطع أن أتذكر أين ومتى رأيته · وظل التساؤل العفوى يلح على فى عناد ـ « أين ؟ » ، « متى ؟ » « أين » ، « متى ؟ » وانتهى الدرس دون أن أعرف مـا قيل فيه ، ودون أن يسعفنى الجواب على تساؤلاتى الصامتة الملحة .

بعد يومين كان الدرس الثانى درس تاريخ ، ودق الجرس ، ومرت ثوان ودقيقة وثلاث وخمس دقائق ولم يأت المدرس · ثم نسيت التلميذات أن مدرسـا سيحضر أو أنهن فى مدرسـة فرحن يهرجن ، أو يتحدثن عن آخر فيلم أو تروى احداهن للأخرى قصة مغامرة غرامية لها أو ··· وفجأة انشق الباب عن رجل كان فؤاد الغول ·

وأذهلت المفاجأة بعضهن فندت عنهن صيحات مخنوقة مكتومة . وقال الرجل وهو يحدجهن بنظرات مؤنبة حادة ووجهه مكتس بابتسامة تركزت حول فمه المستدير وشفتيه الممتلئتين :

« يبدو أنكن لم تعتدن أن تنشق لكن الارض عن عفاريت .. »

لم أسمع ما قال بعد ذلك ، اذ قفز قلبى فجأة ، وعرفته . لقد وجدته أخيرا ، وجدت حبيبى ، عريس أحلامى الذى قابلته فجأة منذ عام وصيفين .

لكم أحببت ذلك الغول : لكم أحببته

وكم سعدت بالدراسة على يديه ذلك العام . عبدته عبادة ، وعبدت مادة التاريخ ، وعبدت المدرسة . لم يكن فى الدنيا كلها سوى كتاب التاريخ ، والمدرسة ، وأيام الاثنين والاربعاء ، وأنا ... وهو ، غولى الحبيب ، فؤادى

وقد عرفنى غولى . عرفنى منذ ثانى درس . كان الدرس يومها قد انتهى ، فراح يضع كتبه ودفاتره فى حقيبته . وخرجت الفتيات الا اثنتين او ثلاثا ـ لا أدرى كم بالضبط ـ كن يسألنه تفسيرا لبعض الأحداث التى ذكرها فى الدرس . ووقفت وراءهن التهمه وألتهم حركاته وكلماته لأتخذ من هذا كله زادا أتزود به حتى يكون درس تاريخ ثان . وحانت منه التفاتة الى . وخفق قلبى بعنف . وتوقف عن الكلام فجأة . ثم سألنى وهو يبتسم :

« هل رأيتك من قبل ؟ »

وتلعثمت ، وفأفأت ، وتأتأت ، وهززت رأسى بالايجاب .

وضحكت التلميذات . ولكنه أنقذنى حين وضع كفه على جبينه وهتف فى انتصار :

« نعم . طبعا رأيتك . أنت أخت الولد العفريت الذى أمسكته لكم على طريق الزبدانى ـ بلودانى » .

وسكت قليلا ، ثم أرانى يده وقال وهو يبتسم :

« أتعرضين لماذا أذكر ذلك اليوم ؟ لقد عضنى أخوك فى هذه اليد عضة أدمتها . اما زال مسعورا ؟ »

وكركرت التلميذات ضحكا . وضحك هو الآخر وهو يحمل حقيبته وينصرف .

وضحكت أنا أيضا ضحكة غميانة مفتعلة . وكاد يغمى على . ولكنه أنقذ الموقف بخروجه السريع .

نعم . لقد عرفنى . صحيح أنه لم يبد اهتماما خاصا بى . ولكنه لم يكن يستطيع . موقفه منى كأستاذ لتلميذة يمنعه من ذلك . انه شريف ، وجميل ، وأنا لذلك أحببته .

ولا شك أنه أدرك من تصرفاتى أنى أحبه ، أعبده . ولكنه اختار أن يتجاهل ذلك . لقد كان نبيلا ، ولم يستغل علاقته الرسمية بى . ولهذا أحببته أكثر ، ان ممكنا أن افعل اكثر احببته بكل جوارحى ، فى كل وقتى . ومضى العام قصيدة ، لم يكن فيها سواه وأنا والمدرسة ، وسوى التاريخ فى يومين فى درسين .

ونجحت ذلك العام فى امتحان الشهادة الثانوية بتفوق . واستغرب الجميع هذا التفوق . فقد كنت خلال سنى الدراسة كلها ممن لا يرجى لهن السبق فى ميدان العلم . ولكن هذا الميدان اقترن هذا العام بحلم حياتى ، بعريس أحلامى ، بالغول الحبيب .

أهلى أدهشهم أن أجتهد اجتهادا لم يعهدوه منى فيما سبق . وأدهشهم أكثر أن أنجح ذلك النجاح الباهر الذى لم يتوقعوه . ولكن أهلى ليسوا من النوع الذى يلح فى تقصى الأسباب . انهم يألفون الجديد بسرعة .

وادارة المدرسة أيضا دهشت . ولكن المدرسين والمدرسات مشغولون بالكثير من الواجبات ، ولا يجدون الوقت الكافى

للثرثرة والتساؤل . فرحوا جميعا بنجاحى ، فهو يساهم فى اعلاء سمعة المدرسة ، وهذا هو أعظم ما يهمهم .

ودهشت زميلاتى التلميذات،وتساءلن كثيرا، وتبرع بعضهن بافتراض الأجوبة. ولم تدرك احداهن الحقيقة . وما تبرعت قط بالقاء الأضواء على هذا التحول الذى اصابنى . احتفظت بقصتى لنفسى ، وكتمت النفس على ما فيها ـ سعدت به وحدى ، وعشت له وحده . واكتفيت به حقيقة وحلما ووهما وخيالا .ما دام فى الدنيا فؤاد الغول ، فأنا مع الدنيا كلها فى سلام ووئام .

واحتفلت المدرسة بالناجحات . وذهبت الى الاحتفال وقد تزينت كما لم أتزين من قبل . فقد كنت ذاهبة الى حفل سيحضره . ولا شك أنه سيعرف اننى لم أتزين الا له ، لتتمتع بجمالى عيناه ، لترتسم صورتى فى قلبه. لاشك أنه سيعرف . فهو يعرف منذ أمد أننى أحبه ، ولكنه اختار أن يتجاهلنى ، لأنه أستاذ وأنا تلميذته ، ومن الاخلاق والنبل ألا يستغل الاستاذ تلميذته ، ولكن الليلة تختلف . لم أعد تلميذته ولم يعد أستاذى وانما نحن الآن رجل وامراة كلانا حر . وأنا جميلة، واحبه، وأعبده ، وهو لا شك أدرك ذلك منذ أمد طويل ،وهو شاب ، وأعزب، وأنا جميلة ومستعدة للارتماء بين ذراعيه لدى أول اشارة منه .

وفى قاعة الاحتفال وقفت مع بعض زميلاتى الناجحات، كنا نتبادل الطرائف المضحكة عن أيام التلمذة وكاننا عجائز يستعدن ذكريات ماض بعيد .. بعيد . سعيدات . أما أنا فكنت أرقب الباب وكانت زميلاتى يضحكن ويقهقهن باستمرار فى انتظار حبيبى الذى سيأخذ بذراعى بعيدا بعيدا عن هذا الحفل ، وعن الناس، الى دنيا تكون لى وله وحدنا ... وحدنا فقط .

وأطل حبيبى .

ولكنه ... لكنه لم يطل وحده ، كانت تتعلق بذراعه فتاة أخرى وكان فى اصبع كل منهما خاتم خطبة .

لكن يا الهى انها لمياء !

كيف وقع فى حبائلها: كيف روضته ذات الشعر الكث والانف العريض المفلطح والقامة القصيرة . كيف ، من دون الجميلات ، حظيت هذه القبيحة بفؤادى ، بغولى .

وانسحبت من الحفل والدموع تنهمر من عينى. لم أعرف كيف وصلت البيت، ولكن حين وصلت الى غرفتى أغلقتها على نفسى واذبت عينى الى دموع .

بعد أسبوع ، كنت طريحة الفراش ، وكانت أخبار مرضى قد تسربت الى زميلاتى .. فجاءتنى لمياء تقص على كيف اقتنصت عريسها الجميل .. وأدركت يومها كيف ينتصر الكادحون ويفشل الحالمون أمثالى .